

التعليم في المغرب والأندلس
في القرن الثامن من الهجرةعبد العزيز بومهرة
قسم اللغة العربية وآدابها
جامعة باجي مختار - عنابة

استلم في 13/05/01 قبل في 11/12/02

مراكز التعليم

تكتسي مهمة المسجد بعد إقامة الشعائر وتصريف شؤون الناس المختلفة أهمية كبيرة في مجال التعليم، فهو مركز من مراكز التعليم ترتاده فئة معينة من الناس، يتراوح مستواها التعليمي بين الأمية والإلمام القليل بالقراءة والكتابة، وهم عادة من كبار السن الذين لا يجدون أماكنهم في مؤسسات التعليم الأخرى، فاكثفوا ببعض الدروس الدينية، وحفظ القرآن، وتتم العملية «... بمبادرة شيخ أو شيوخ من المتبحرين في العلم، وقد تكون مجانية لدى الجانبين الشيوخ والطلبة، وقد تدفع أجرة، أما الطلبة فلا جارية لهم ولا سكن⁽¹⁾». ولكن الجوامع الكبيرة مثل جامع الزيتونة والقرويين والجامع الأعظم بتلمسان وجامع حمراء غرناطة كانت أشبه بالمعاهد العليا، تدرس فيها الاختصاصات المختلفة، غير أن هذه الدراسة كانت عفوية لا يضبطها نظام. ويختلف الوضع في الكتاتيب، حيث يتعلم الأطفال القراءة والكتابة، ثم يأخذون في حفظ القرآن، وربما اشتركت الكتاتيب في المهمة نفسها مع الزوايا إلا أن هذه الأخيرة لم تكن تقصر نشاطها على التدريس⁽²⁾.

أما المدرسة، فكانت أكبر مركز تعليمي يشهده هذا العهد، فقد تطورت، وأخذت أشكالاً متقدمة اقتربت كثيراً من نظام الجامعات في عصرنا الحاضر، فأصبحت مؤسسة مستقلة مالياً وإدارياً، وإذا استثنينا المدرسة التي أنشأها المنصور الموحدي بسلا (593 هـ) فإن المصادر لا تتحدث عن أي نشاط في مجال بناء المدارس، «... وفجأة نجدها تفيض في ذكر ما أنشأه المرينيون في المغرب الأقصى والأوسط، وبنو زيان بتلمسان والحفصيون في تون، والنصريون في غرناطة من مدارس، وخاصة في القرن الثامن للهجرة، حتى لقد أصبح تأسيس المدارس ينافس بناء الجوامع...»⁽³⁾. وفي المسند⁽⁴⁾ أن السلطان يعقوب بن عبد

الحق المريني (656 - 684) كان أول من سنّ سنة بناء المدارس، وأوقف عليها الأوقاف وأجرى الرواتب على المدرسين، غير أن السلطان الحفصي أبا زكريا (647 هـ) كان قد بنى مدرسة قبل ذ⁽⁵⁾ ، وربما تكون أدنى من حيث التنظيم والاستقلالية. كما عرفت تونس مدرستين بنيتا في القرن الثامن، هما " مدرسة عنق الجمل " التي بنتها أخت السلطان أبي يحيى أبي بكر سنة 742، وابنتى الحاجب المشهور عبد الله بن تافراكين مدرسة بقنطرة ابن ساكن داخل باب سوقة⁽⁶⁾ . وشرع الأمير أبو زكريا صاحب بجاية وقسنطينة في بناء مدرسة « ... تأنق في بنائها وأقام بها مسجدا، وجلب لها الرخام الحسن الشكل البديع المنظر، ورتب لها المساكن للطلبة وأوقف عليها حبسا .. »⁽⁷⁾ . ودهمته الفتن، فلم يتمها، وحين ملك ولده أبو البقاء خالد أكمل مشروع والده « ... فرتب لها الإنفاق ... وحمل لها من الكتب ما يفوق الحصر عددا وحسنا ... »⁽⁸⁾ . كما اعتنى الحفصيون بتعمير المكتبات بالكتب والدواوين، ووضعوها بين أيدي طلاب العلم⁽⁹⁾ .

وفي تلمسان أسس الزيانيون أول مدرسة في عهد أبي حمو الأول (718)، ابتناها للإمامين الشهيرين ابني الإمام، وسميت باسميهما⁽¹⁰⁾ . كما أسس ابنه أبو تاشفين (737) المدرسة التاشفينية، وأخرجها في أحسن صورة بما زخرفها وزينها⁽¹¹⁾ ، وحضر حفل افتتاحها الفقيه الكبير أبو موسى عمران المشدالي. وحظيت تلمسان بحركة عمرانية واسعة حين ضمها المرينيون لملكهم، فبنوا فيها عددا من المساجد والمدارس، كما فعل أبو الحسن المريني حين بنى مدرسة العباد بتلمسان ومدرسة بالجزائر⁽¹²⁾ . ولا شك أن عنايتهم ببناء المدارس في موطنهم قد فاقت كل عناية، فقد ذكرت المصادر أن فاسا تحولت إلى جامعة من كثرة المدارس، ولم تحرم أية منطقة من مدرسة أو أكثر؛ ففي القرن الثامن، أمر أبو سعيد (710 - 731) ببناء مدرستين، الأولى بفاس الجديد، والثانية بإزاء جامع القرويين، وهي مدرسة العطارين التي جاءت « ... من أعجب مصانع الدول، بحيث لم يبن ملك قبله مثله، وأجرى بها ماء معينا من بعض العيون هنالك وشحنها بالطلبة، ورتب فيها إماما ومؤذنين⁽¹³⁾ ، وقومة يقومون بأمرها، ورتب الفقهاء لتدريس العلم وأجرى على الكل المرتبات والمؤن فوق الكفاية، واشترى عدة أملاك ووقفها عليها»⁽¹⁴⁾ ، إلا أن أبا الحسن كان أوفر سلاطين مرين حظا في بناء المدارس والحرص على إخراجها في أبهى صورة وأفخم مظهر، وقد اقتحم هذا المجال منذ صغره، فبنى حين كان وليا للعهد مدرسة قرب جامع الأندلس⁽¹⁵⁾ ، وبذل عليها أموالا طائلة حتى وفر لها كل مستلزماتها، كما أنشأ المدرسة الكبرى، ومدرسة مصباح المدرس بها، واشتهر عنه أنه أنشأ في كل بلد من بلاد المغرب مدرسة « .. وكلها قد اشتمل على المباني العجيبة،

والصنائع الغربية، والمصانع العديدة والاحتفال في البناء والنقش والجص والفرش على اختلاف أنواع الزليجي البديع...»⁽¹⁶⁾. واشترك معظم السلاطين المرينيين في هذه الحركة، فابتنى أبو عنان المدرسة البوعنانية، وهياها بحيث تكون معهدا شاملا.

وأما في الأندلس، فقد قلّ احتفالهم ببناء مثل هذه المدارس، عدا مدرسة واحدة شهيرة هناك هي " مدرسة غرناطة "، أو المدرسة النصرية، وأسست في عهد السلطان أبي الحجاج يوسف الأول، واعتنى بها حاجبه أبو النعيم رضوان، وقد سميت أحيانا " الجامعة النصرية "، وفر لها النصريون كل مقومات المدرسة الجامعة، فعدت من أكبر مراكز العلم في المغرب الإسلامي. قال ابن الخطيب يشيد بها:

ألا هكذا تبني المدارس للعلم وتبني عهود المجد ثابتة الرسم
ويقصد وجه الله بالعمل الرضا وتجنّي عهود العز من شجر العزم

وبصورة عامة، فإن المدرسة في هذا العهد قد وفرت لها إمكانات كبيرة، فضمت قاعات للمحاضرات، وفندقا للإقامة، وقاعة للصلاة بها منبر لإقامة صلاة الجمعة، كما تكاملت من الناحية البشرية، فقصدها الطلبة من كل جهة، وعين لها المدرسون والإمام وقومة على المكتبة وخدمة، وأوقف لهذه المدارس أوقافا تضمن جريات لكل أفرادها من الطلبة إلى الخدم، كما حبست بهذه المدارس كتب ومصاحف كثيرة ونفيسة⁽¹⁷⁾.

ولكن هذا الاتجاه القوي نحو البناءات المدرسية واجه بعض المعارضة من علماء كبار أمثال الشيخ أبي عبد الله الأبلبي⁽¹⁸⁾، الذي رأى فيها مجرد إغراءات للطلبة حتى تسهل عملية تبعيتهم للسلطة، وكان الأبلبي شيخ المعلمين في ذلك العهد⁽¹⁹⁾، حج في مطلع القرن حيث التقى علماء الشرق وأخذ عنهم، ثم عاد إلى تلمسان، وقد انقضت عنها هيعة الحصار، تعلم العلم ومال إلى العقلية، وقرأ المنطق وجملة من الأصول، علم أبو حمو الأول بتضلعه من الحساب، فأوكل إليه الإشراف على شؤونه المالية، لكنه ما لبث أن فرّ منه إلى فاس، حيث أخذ عن " خلوف المغيلي " وابن البناء المراكشي، ثم صعد إلى شيخ الهسكرة حيث اجتمع طلبة العلم هناك عليه، فكثرت إفادته واستفادته، ولما نزل فاسا... »... انثال عليه طلبة العلم من كل ناحية، فانتشر علمه واشتهر ذكره...»⁽²⁰⁾. وانضم إلى المجلس العلمي الذي يحيط بأبي الحسن بتلمسان، وهناك عكف على التدريس والتعليم، وحين صحب أبا حسن إلى إفريقية، استمر في مهمته التعليمية، فدرس عليه ابن خلدون المنطق والأصول والحكمة وغيرها،

ثم طلبه أبو عنان من المغرب الأقصى، وفي طريقه نزل بجاية، وبقي بها « ... حتى قرأ عليه طلبه العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه ... »⁽²¹⁾ واشتهر بتلمسان كذلك العالمان الكبيران ابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن (743)، وأبو موسى عيسى (749)⁽²²⁾، وتتلّمذ عليهما أغلب علماء المنطقة في ذلك العهد بما فيهم الأبلّي السالف الذكر وشاركوا بقوة في نشر العلم بتلمسان وفاس بخاصة. ومنهم أيضا المدرس الكبير أبو موسى بن يوسف المشدالي (745)، الذي درس الحديث والفقه والأصليين والنحو والمنطق والجدل والفرائض، وبرع في أكثرها.⁽²³⁾ كما يعد أبو عبد الله الشريف التلمساني (710 - 771) واحدا من أشهر مدرسي تلمسان⁽²⁴⁾، فبعد أن درس على ابني الإمام والأبلّي وابن عبد السلام التونسي « ... انتصب لتدريس العلم وبثه، فملأ المغرب معارف وتلاميذ إلى أن اضطرب المغرب بعد واقعة القيروان ... »⁽²⁵⁾ واستبدّ أبو عنان بالملك، فضمه إلى مجلسه العلمي، فتبرّم أبو عبد الله من الاغتراب، وعاد إلى تلمسان، حيث استقبله أبو حمّو الثاني « .. وأصهر له في ابنته فزوجها إياه، وبنى له مدرسة وأقام الشريف يدرس العلم إلى أن هلك .. »⁽²⁶⁾ ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الهواري التونسي (749)، المدرس الذي تخرج من مدرسته ابن خلدون وابن عرفة وغيرهما من علماء ذلك العهد⁽²⁷⁾، جمع في علمه بين مدرستين، هما " المدرسة العنقية " و " المدرسة الشماعية "، إضافة إلى التدريس بمنزله، فقد ذكر البلوي في رحلته أنه سمع « ... منه بمنزله في تونس جميع موطأ الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه في مجالس كثيرة »⁽²⁸⁾. ويبدو أن أخت السلطان قد أحست بهذا الانشغال والعمل المتواصل في أكثر من مجال ومكان، فعدت ذلك تهاونا بمدرستها - العنقية - ففصلته من التدريس بها. وكذلك تلميذه ابن عرفة الذي درس حوالي نصف قرن من الزمن، وسيطر على الحياة الدينية والثقافية في تونس، وقد درس بأكثر من مدرسة وجامع، وشملت دروسه التفسير والقراءات والفقه والمنطق والحديث والحساب⁽²⁹⁾.

وأما عن الكتب التي كانت تدرس في مدارس المغرب والأندلس، وقرئ بعضها على السلاطين هنا⁽³⁰⁾، فقد تنوعت اختصاصاتها؛ فشملت التفسير والحديث والفقه المالكي والنحو والأدب، سواء أكانت هذه الكتب مشرقية أم مغربية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: تفسير ابن عطية، والكشاف للزمخشري، والجامع الصحيح للبخاري، وصحيح مسلم، والموطأ للإمام مالك، والمدونة لسحنون، وإحياء علوم الدين للغزالي، والسيرة لابن هشام، والاكتفاء لأبي ربيع الكلاعي، وكتاب سيبويه، والمغني لابن هشام، وغيرها من كتب الأدب

العربي الشهيرة. وكان الكتاب أبرز مظاهر الوحدة الثقافية بين المغرب والمشرق فما أن يظهر كتاب هنا أو هناك، حتى ينتقل بسرعة إلى عواصم الثقافة الأخرى في العالم الإسلامي، وكتاب المغني لابن هشام دليل على ذلك⁽³¹⁾. ولئن غلب الطابع الديني على اتجاه الدراسة في ذلك العهد، فإن بعض المدارس كانت تدرس - بالتأكيد - العلوم الرياضية والعقلية، إضافة إلى العلوم الدينية والأدبية..

كانت مدة إقامة الطلبة بالمدارس في تونس خمس سنوات، وامتدت في فاس إلى ست عشرة سنة، ويبدو أن فاسا وتونس قد حظيتا بإقبال شديد من الطلبة المغاربة، وحتى الأفارقة بما وفر فيها من المدارس الكثيرة، حتى قيل إن عدد الطلبة في فاس بلغ المئات في القرن الثامن⁽³²⁾. ولا شك في أن هذه العناية من قبل المرينيين ببناء المدارس وتوفير المسكن والجرايات للطلبة والمدرسين وللقائمين عليها يعود إلى رغبتهم في جعل عاصمتهم مركزا ثقافيا وعلميا له أهميته، ولذا لاحظنا أن مجلسهم العلمي قد ضم أغلب علماء ذلك العهد وأشهرهم، وخاصة حين استولوا على تلمسان، وتقدموا نحو إفريقية.

إن هذا الصنيع - تنظيم الدراسة وإلحاق العلماء بمجلسهم العلمي - يستهدف من دون أي ريب السيطرة على النشاط الثقافي والعلمي⁽³³⁾، في ذلك الوقت، خوفا من انتشار تيارات فكرية مناهضة لحكمهم، وبخاصة تيار الصوفية الذي كاد يكتسح المنطقة.

وعلى الرغم من هذه الجهود، فإنهم أخفقوا في مجرد الاقتراب منهم بله مراقبتهم. ولقد حاول أبو عنان مرارا الاتصال بالصوفي الكبير ابن عاشر، لكنه صدّ في كل مرة، وفي "المسند" إشارات كثيرة إلى التردد الذي يبديه أبو الحسن نحو العلماء⁽³⁴⁾، وإن عده ابن مرزوق تقديرا، فإننا نحسبه تقربا منهم، وتقريبا لهم حتى تسهل عملية السيطرة عليهم، ذلك أن الصوفية كانوا يشكلون التيار الثقافي المعارض للسلطة حينذاك، ومن هنا كان تشجيع السلاطين للاتجاه المحافظ الذي مثله الفقهاء حين قصدوا من التعليم نقل التراث، والحفاظ عليه كما هو من دون جهد أو معاناة في التعامل معه، فاكثفوا بدراسة كتب الأوائل وفي أحسن الأحوال اختصروها ولخصوها بلا زيادة، حتى انعدمت - أو كادت - حرية الفكر والتفكير، وتحول الطالب إلى وعاء ينقل ويحفظ وانتهى به الأمر إلى الذوبان في الإطار العام للجماعة، فلا اجتهد ولا إبداع، وخير شاهد على رسوخ هذه الفكرة ما رأيناه في النهاية المفجعة للسان الدين بن الخطيب الذي ذهب ضحية تحجر الفقهاء وجمودهم، وإن تدخلت السياسة في تحديد هذا المصير، وهو ما كاد يحصل لابن خلدون في تونس على أيدي ابن عرفة الورغمي وجماعته، لكن ابن خلدون كان فطنا، فانسحب في الوقت المناسب⁽³⁵⁾.

2 - سند التعليم في المغرب والأندلس

اختلفت أوضاع التعليم في أقطار المغرب والأندلس، وتراوحت بين محافظ على اتصال سنده بالمشرق منذ القديم وعبر شيوخ كبار، ومنقطع السند. وقد أثر هذا على مستوى التعليم وطريقته؛ ففي تونس تواصل سند التعليم على يد ابن زيتون (ق 7 هـ) الذي رحل إلى المشرق وأخذ عن العلماء هناك، وبخاصة تلاميذ الرازي، فلحن «... تعليمهم وحذق في العقليات والنقلات، ورجع إلى تونس بعلم كثير وتعلم حسن...»⁽³⁶⁾. وانتشرت طريقته في التدريس وأخذها ابن عبد السلام، الذي أصبح مدرس القرن الثامن، درس عليه أعلام ذلك العهد، فحفظوا طريقته في التحليل والتعليل والمحاورة، وابتعد تلاميذه عن أساليب الحفظ والاستظهار، وكان ابن عرفة أنجب من تمثل طريقته، فاعتنى بالجمع والتحليل والإملاء واهتم بالتخريج والتأويل حتى تستقيم الدلالة المقصودة، ثم أشار إلى القواعد اللغوية والبلاغية «... وكان يفتح المجال في إلقائه للبحث والسؤال، وكثيرا ما يعتبر سؤالا واحدا من طلبته ماثرا لبيان عنصر من عناصر الموضوع ما كان ملتفتا إلى إثارته قبيل ذلك السؤال...»⁽³⁷⁾. ينتهي الدرس عادة باستنتاج مسائل مبتكرة. وكان يحرص على أن يتم كل ذلك في جو مرح يبعد الملل عن الطلاب. ومن بجاية، ارتحل أبو علي ناصر الدين المشدالي إلى المشرق، وأدرك هناك علماء وأخذ عنهم «... وحذق في العقليات والنقلات، ورجع إلى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد، ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها...»⁽³⁸⁾.

وأما سند تلمسان، فكان موصولا بأواصر متينة بسند تونس وبجاية، فقد كانت رحلات العلماء لا تتوقف بين هذه المراكز العلمية الكبيرة؛ فحين رحل ابنا الإمام إلى المشرق وأخذوا العلم، وناظرا أهله ووصلا دمشق، مرّا بتونس وأخذوا الطريقة من هناك عن مدرسيها⁽³⁹⁾، كما رحل فيما بعد أبو عبد الله الشريف إلى تونس، ولقي أبا عبد الله بن عبد السلام «... وحضر مجلسه وأفاد منه واستعظم حقه...»⁽⁴⁰⁾. ويرى ابن خلدون أن طريقة التعليم وملكة التلقي انتهت لدى أبي عبد الله الشريف هذا وسعيد العقباني (811)⁽⁴¹⁾، وكان الطلبة يستعينون بحسن إلقائه وسهولة فيضه، وهو «... يحملهم على الصدق ويبث لهم الحقائق، ويرتب كلا في منزله، ويحمل كلامهم على أحسن وجوهه، يبرز في صورة يترك كل أحد وما يميل إليه من العلوم»⁽⁴²⁾. كما أن أبا موسى عمران المشدالي البجائي قد قدم تلمسان، ونشر طريقة أستاذه ناصر الدين المشدالي التي قدم بها من المشرق⁽⁴³⁾.

ويختلف الأمر كثيرا في فاس، فقد أجمعت المصادر على انقطاع سند التعليم بها منذ انقراض عهد قرطبة والقروان، وظل الطالب يلزم المجالس العلمية، يحضر الدرس طوال سنوات عدة، يعتني بالحفظ أكثر مما يعتني بالفهم، لا يحاور ولا يناقش، وينتهي به الأمر دون الحصول على ملكة...التصرف في العلم والتعليم، ثم بعد تحصيل من يرى منهم أنه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه إن فاوض أو ناظر، أو علم، وما أتاهم القصور إلا من قبل التعليم وانقطاع سنده، وإلا فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشد عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلمية ⁽⁴⁴⁾. ولذلك طالت مدة إقامتهم في المدارس أكثر من اللازم، ولا شك في أن ذلك ناجم بخاصة عن قصور طريقة التعليم وصعوبتها. ويبدو أن أبا عنان المريني (759) سلطان فاس قد أحس بهذا القصور في طريقة التعليم، فبعث أحد علماء تلمسان يمتحن الفقيه الصرصري المدرس بالمدرسة المتوكلية، وحين طلب الممتحن منه أن يحقق ما أورده بالمناقشة والتعليل والتحليل ⁽⁴⁵⁾ «... انقطع انقطاعا فاحشا، ولما أضجره ذلك نزل عن كرسيه وانصرف كئيبا...» ⁽⁴⁵⁾ ذلك أن الطريقة المعتمدة هي الحفظ عن ظهر قلب والإلقاء دون محاورة أو مناقشة، ودون زيادة أو نقصان، ولعلمهم بعد ذلك حاولوا استدراك ما فاتهم، والاستفادة من علماء تونس وبجاية وتلمسان، وإن كنا في حيرة من الأمر أمام هذه المعضلة؛ فالعلماء في المغرب والأندلس لم يكونوا منفصلين يعيشون حياة العزلة، بل إن ما يجمعهم أكثر مما يفرقهم ويعزلهم، فإضافة إلى رحلات العلماء شرقا وغربا، هناك الاكتساح المريني المشهور بقيادة أبي الحسن الذي سعى إلى ضم علماء المنطقة - وقسرا في بعض الأحيان - إلى مجلسه العلمي الرسمي، وقد انتشروا بعد هزيمته وانساحوا في البلاد يدرسون وينشرون العلم قبل أن يعاودوا التجمع في بلاط أبي عنان، وحتى إذا ما أعرضنا عن هذا، فإن تلمسان - وسند تعليمها لم ينقطع عن المشرق وتونس - ظلت طوال فترات كثيرة تحت سلطة المرينيين، وكان علماؤها في كل مرة يختلطون بعلماء فاس، فكيف لم يلتقط الفاسيون هذا السند، ويحاولوا بوساطته تحسين طريقة تدريسهم؟ وتجاوز الخلل الكامن في اعتمادهم الكلي على الحفظ والاستظهار، والابتعاد كلية عن المناقشة والمحاورة، مما جعل الطالب يتخرج بعد ست عشرة سنة من قبل أن يتمكن من المناظرة أو المحاورة. ربما عزونا ذلك إلى عزلة الفقهاء القائمين على الدراسة عن حلبة العلماء، مما يجعلهم بعيدين عن العلوم الوافدة وطرائقها، وربما كان عزوفهم عنها لتأصل الطريقة الأولى في أنفسهم.

ولكن أبا عنان استدعى الفقيه الصرصري فيما بعد، وقال له: «... أنا أمرت بذلك كي تعلم ما عندك من العلم وما عند الناس، وتعلم أن دار

المغرب هي كعبة كل قاصد فلا يجب أن تتكل على حفظك، وتقتصر على ما حصل عندك، ولا يمنعك ما أنت فيه من التصدي عن ملاقة من يرد من العلماء والتنزّل للأخذ عنهم، ولا يقدح ذلك في رتبك...» (46). وليست الأندلس ببعيدة عن طريقة التعليم في فاس، ذلك أن سند التعليم قد انقطع لديهم كذلك، وبخاصة بعد تناقص العمران بها بسبب حروبهم مع النصارى، فقد هجرها العلماء ورحلوا إلى المغرب، وبخاصة إفريقية أو إلى المشرق، «... ولم يبق من رسم العلم فيهم إلا فن العربية والأدب، واقتصروا عليه وانحفظ بحفظه...» (47). وأما العلوم الأخرى، فقد اندرس رسمها، والسبب في ذلك هو انقطاع سند التعليم بالأندلس (48).

وكان ابن خلدون شديدا في نقده لهذه الطريقة في التعليم، فذمها قائلا: «..وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهلون طرق التعليم وإفادته، ويحضرون للمتعلّم في أول تعليمه المسائل المقلّة.. ويحسبون ذلك مرانا على التعليم وصوابا فيه، ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مبادئها...» (49). مما يحدو ببعض الطلاب إلى الانسحاب معتقدين أن ذلك عجز منهم، وهو في الحقيقة من سوء التعليم (50). وقدم رأيه « في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق إفادته .. » (51)، فاشتراط أن يكون «... على التدريج شيئا فشيئا وقليلًا قليلًا...» (52). ويمضي في شرح طريقة التعليم ليلتقي مع النظرية التربوية الحديثة لقاء يكاد يكون كاملا، فهو يرى أن تقدم في البداية أصول الموضوع وتشرح على سبيل الإجمال، مع مراعاة مستوى عقل الطالب واستعداده، وفي المرحلة الثانية يعطى معلومات أعلى وأعمق وإيفاء الشرح حقه، وفي المرحلة الأخيرة يشرع في مناقشة المسائل العويصة والمبهمّة والمغلقة، فتوضح أقفاله، تماما كما يدعو اليوم علماء التربية إلى ضرورة التدرج من السهل إلى الصعب، ومن البسيط إلى المركب.

3 - موقف العلماء من كثرة التأليف والمختصرات :

من القضايا التي نالت حظا من الجدل والمراجعة كثرة التأليف، وقد اتخذ عدد من العلماء مواقف منها، فقال الأبلّي: «... إنما أفسد العلم التأليف... وذلك أن التأليف نسخ الرحلة التي هي أصل جميع العلم، فكان الرجل ينفق فيها المال الكثير، وقد لا يحصل له من العلم إلا النزر اليسير لأن غايته (53) على قدر مشقته في طلبه...» (54). ثم إن هذا التأليف يطرح للبيع، فيشتريه الناس بأبخس الأثمان، وقد ينسى صاحبه في نهاية الأمر، وكأنما الأبلّي يدعو إلى الرحلة والعناء

طلبا للعلم، لأنه هو العلم الصحيح. ويعد ابن خلدون أيضا كثرة التأليف مضرة بالتعليم في تحصيله لأن مصطلحاتها مختلفة وطرقها متعددة، سواء في الفقه أو في علم العربية، فإن الطالب ملزم بمتابعة التأليف فيها ومعالجتها والتميز بينها، ولكن العمر ينقضي في واحد منها، فكتب النحو - مثلا - كثيرة وطرقها مختلفة وموزعة بين البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين وغيرهم.

إن الوصول إلى الغاية من هذه المؤلفات واستيعاب تلك الطرق ليس أكثر من مطمح لا يبلغه إلا القليل النادر⁽⁵⁵⁾. ويبدو أن ابن خلدون يرى - أيضا - في الرحلة حلا لسوء التعليم وصعوبة طرقه، لأن « .. حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكما وأقوى رسوخا، فعلى كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها ... فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد يميز الاصطلاحات بما يراه من اختلاف طرقهم فيها ... »⁽⁵⁶⁾. وقد أثر في هذا المجال نقاش حول كثرة المختصرات، التي أقبل عليها العلماء في هذا العهد، وذهب بعضهم إلى رفض الأخذ عن مختصرات المتأخرين، والاكتفاء بعلوم الأقدمين، وكان أساس نقد ابن خلدون أنها إفساد للتعليم وإخلال بالتحصيل، لقد ولع المتأخرون باختصار بعض الكتب في ألفاظ قليلة محشوة بمعان كثيرة، فكان ذلك إخلالا بالبلاغة وتيسيرا للفهم⁽⁵⁷⁾. وبينما ينبه المقرئ الجد إلى ضرورة النقل عن مختصرات الشيوخ المعروفين، وترك غيرها، يذهب القباب⁽⁵⁸⁾، إلى رفضها « ... تارة للجهل بمؤلفيها، وتارة لتأخر زمان أهلها جدا، أو للأمرين معا، فلذلك لا أعرف كثيرا منها ولا أفنتيه، وإنما المعتمد عندي كتب الأقدمين المشاهير ... »⁽⁵⁹⁾. واتبعه في هذا الموقف الفقيه أبو إسحق الشاطبي (790)⁽⁶⁰⁾.

ومما شهر عن القباب أنه وجه نقدا لاذعا إلى ابن عرفة الورغمي التونسي، حين اطلع على ما كتبه في مختصره الفقهي؛ إذ قال له: ما صنعت شيئا لأن هذا يفهمه المبتدئ، ولا يحتاج إليه المنتهي، فتغير وجه ابن عرفة، وعمل على بسط العبارة فيما بقي من مختصره⁽⁶¹⁾. وهو ما يؤكد تبادل الخبرات والتجارب بين علماء المنطقة، قصد رفع مستوى التعليم والعلم. كما يلاحظ أنهم اعتمدوا الرواية العلمية لتعزيز سندهم الفكري، فكثر رحلاتهم شرقا وغربا، يؤمون حواضر الثقافة في العالم الإسلامي ويجالسون العلماء ويأخذون عنهم ويحاورونهم، واهتموا بطلب الإجازة من شيوخهم، وحصلوا عليها تامة في غالب الأحيان، كما طلبوها عن طريق المراسلة عند الضرورة⁽⁶²⁾، ثم يعودون إلى بلدانهم أحيانا، بأعلى سند في المغرب⁽⁶³⁾، والمشرق⁽⁶⁴⁾، وهو اجتهاد وسعي للحصول على الأصول الثقافية والعلمية.

- الهوامش والإحالات

- (1) - د. داود القاضي، نبذة عن المدرسة في المغرب حتى القرن التاسع الهجري في ضوء كتاب المعيار للونشريسي، ص 72.
- (2) - نفح الطيب، 5 / 532.
- (3) - د. داود القاضي، نبذة عن المدرسة في المغرب، ص 65.
- (4) - المسند الصحيح الحسن، ص 405.
- (5) - عبد العزيز الدولاتي، مدينة تونس في العهد الحفصي، ص 823.
- (6) - المرجع نفسه، ص 84.
- (7) - ابن قنفذ القسنطيني، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص 156.
- (8) - المصدر نفسه، ص 156.
- (9) - أبو العباس أحمد الشماع، الأدلة البينة النورانية، ص 143. ومدينة تونس في العهد الحفصي، ص 83.
- (10) - البغية، 1 / 130.
- (11) - ظلت هذه المدرسة شامخة تقاوم عوامل الزمن إلى أن هدمها الفرنسيون سنة 1875 م ونهبوا أثارها، انظر حاجيات، أبو حمو موسى الزيان، ص 61 - 62.
- (12) - هدى زكريا، النشاط العقلي والتقدم الحضاري بالجزائر في عهد الزيانيين، ص 166.
- (13) - ضمت أغلب المدارس مساجد يؤدي فيها الطلبة فروضهم.
- (14) - الاستقصاء، 3 / 112.
- (15) - المصدر نفسه، 3 / 111 - 112.
- (16) - المسند، ص 406.
- (17) - المرجع نفسه، ص 406 - 407، وانظر جني زهرة الأس، ص 76.
- (18) - أحمد الونشريسي، المستحسن من البدع، فصل من المعيار المعرب، ص 22.
- (19) - انظر ترجمة الأبلي في التعريف، ص 21 - 33، ونيل الابتهاج، ص 345، والبغية، 1 / 120، والمسند، ص 266.
- (20) - التعريف، ص 37.
- (21) - المرجع نفسه، ص 39.

- (22) - انظر ترجمتهما في: التعريف، ص 29، ونيل الابتهاج، ص 166 - 190، والبغية، 1 / 130، والنفح، 5 / 215، والمسند، ص 265. (23) - انظر ترجمته في: التعريف، ص 61، نيل الابتهاج، ص 215، النفح، 5 / 223، البغية، 1 / 130. (24) - انظر ترجمته في: التعريف، ص 64، نيل الابتهاج، ص 255، البغية، 1 / 120. (25) - التعريف، ص 65. (26) - المصدر نفسه، ص 66. (27) - انظر ترجمته في: النفح، 5 / 251، المرتبة العليا، ص 161، وتاج المفرق في تحلية علماء المشرق، 1 / 176. (28) - تاج المفرق، 1 / 177. (29) - انظر ترجمته في: الديباج، ص 337، ونيل الابتهاج، ص 274، والتفسير ورجاله، ص 149. (30) - المسند، ص 138 - 139، و 275 - 277. (31) - المقدمة، 4 / 1377. (32) - فاس في عصر بني مرين، ص 174، وابن عاشور، التفسير ورجاله، ص 153. (33) - مدينة تونس في العهد الحفصي، ص 81. (34) - انظر على سبيل المثال الصفحات: 149، 150، 155، 159، 314، 313، 322، 323، 327. (35) - التعريف، ص 261 - 263. (36) - المقدمة، 3 / 1120. (37) - التفسير ورجاله، ص 154 - 155. (38) - المقدمة، 3 / 1121. (39) - المسند، ص 265 - 266، والمقدمة، 3 / 1120. (40) - التعريف، ص 64 - 65. (41) - أزهار الرياض، 3 / 25. (42) - نيل الابتهاج، ص 258. (43) - المقدمة، 3 / 1121. (44) - المرجع نفسه، 3 / 1121. (45) - أزهار الرياض، 3 / 27.

- (46) - الأزهار، 3 / 27.
- (47) - المقدمة، 3 / 1122.
- (48) - المصدر نفسه، 3 / 1122.
- (49) - المصدر نفسه، 3 / 1353.
- (50) - المصدر نفسه، 4 / 1354.
- (51) - المصدر نفسه، 3 / 1353.
- (52) - المصدر نفسه، 3 / 1353.
- (53) - في المتن " عنايته "، والتصويب من نيل الابتهاج، ص 246.
- (54) - أحمد الونشريسي، المستحسن من البدع، ص 22.
- (55) - المقدمة، 3 / 1351.
- (56) - المصدر نفسه، 3 / 1365.
- (57) - المصدر نفسه، 3 / 1352.
- (58) - انظر ترجمته في: نيل الابتهاج، ص 72، وبغية الأمانة ومقصد اللبيب، ص 183.
- (59) - محمد المنوني، التيارات الفكرية في المغرب المريني، ص 7.
- (60) - انظر ترجمته في: نيل الابتهاج، ص 46، ومعجم المؤلفين، 1 / 118، وعن رأيه في الموضوع انظر المعيار، 11 / 142.

- المصادر والمراجع

- 1 - البلوي: أبو البقاء خالد بن عيسى (825 هـ):
- تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، صندوق إحياء التراث العربي، مطبعة فضالة، المغرب، د.ت.
- 2 - التنبكتي: أحمد بابا
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- 3 - الجزنائي: علي (ق 8)
- جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط 1967.
- 4 - حاجيات عبد الحميد:
- أبو موسى الزباني، حياته وأثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1974.

- 5 - ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (808 هـ) :
- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1979.
- مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، طبعة لجنة البيان العربي، القاهرة 1968، ط 2.
- 6 - ابن خلدون: أبو زكريا يحيى بن محمد (780 هـ) :
- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج 1، تحقيق د. عبد الحميد حاجيات، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1980.
- 7 - الدولاتي: عبد العزيز:
- مدينة تونس في العهد الحفصي، دار سراس للنشر، تونس 1981.
- 8 - ابن رشيد الفهري: أبو عبد الله محمد السبتي (721 هـ) :
- السنن الأبين والمورد الأمعن، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الدار التونسية للنشر، تونس 1977.
- 9 - زكريا: مفدي
- النشاط العقلي والتقدم الحضاري بالجزائر في عهد الزيانيين، مجلة الأصالة، عدد 26 / 1975.
- 10 - الشماخ: أبو عبد الله محمد بن أحمد (833 هـ) :
- الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية، لجنة الطلبة للنشر والتعريب، مكتبة الاستقامة تونس، د.ت.
- 11 - ابن عاشور: محمد الفاضل
- التفسير ورجاله، دار الكتب الشرقية، تونس، ط 2، 1972.
- 12 - ابن فرحون: برهان الدين إبراهيم بن علي اليعمري (ق 8)
- الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- 13 - القاضي: د. وداد
- نبذة عن المدرسة في المغرب حتى القرن التاسع الهجري في ضوء المعيار للونشريسي، الفكر العربي، عدد 21 / 1981.
- 14 - ابن قنفذ: أبو العباس أحمد بن حسين (810 هـ) :
- الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر وعبد الحميد الزكي، الدار التونسية للنشر، تونس 1968.
- 15 - لوتورنو: روجيه
- فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، مكتبة لبنان، بيروت 1967.

- 16 - ابن مرزوق: أبو عبد الله محمد بن أحمد (781 هـ)
- المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريّا خيسوس بيغيرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981.
- 17 - المقرئ : أحمد بن محمد (1041)
- أزهار الرياض في أخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة 1939.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1968.
- 18 - المتونى: محمد
- التيارات الفكرية في المغرب المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء 1971.
- 19 - مؤلف مجهول:
- بغية الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسببته في الدولة المرينية من مدرّس وأستاذ وطبيب، دراسة محمد تاريت الطنجي، مجلة تطوان، عدد 9 / 1964.
- 20 - الناصري: أبو العباس أحمد بن خالد
- الاستقصاء لأخبار دولة المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصر ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء 1954 .
- 21 - النباهي: أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقي الأندلسي (ق 8)
- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفنّاء، حققه ليفي بروفنسال، تحت عنوان " تاريخ قضاة الأندلس، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.
- 22 - الونشريسي: أبو العباس أحمد (ق 9 هـ)
- المستحسن من البدع "فصل من المعيار"، نشره هنري بيرس، المطبعة الرسمية، الجزائر 1946.